علم الاجتماع مع الأدب والثورة

بقلم خيري أحمد خليل

٢ ـ مع الثورة (*)

ان ما يميز افريقيا وما هو جديد فيها هو ظاهرة الثورة . فنحن نعرف ان « الثورة الافريقية » قد انطلقت منذ عام ١٩٤٦ حتى ١٩٦٣ مما ادى الى ولادة ١٨ دولة جديدة مستقلة . ونحن نتناول الثورة في مفهومها الهيجلي . فالثورة تعني السير من الكمي نحو الكيفي ، فالتغير الكيفي ناجم عن تراكم التغيرات الكمية . (علم المنطق) .

ويبني جان زيجلر الافتراض التالي ـ ونوضح أن من حقه أن يفترض ما يشاء الا ان عليه ان يبرهن على ذلك ـ : أن معظم الانظمة الافريقية الجديدة تتعرض للسير التالي : حالة شذوذ وتمرد ، الغاء الحريات الاساسية ، الحزب الواحد ، ديكتاتورية رئيس الجمهورية او الحاكم ، واخيرا طغيان فردي او جماعي يصارع في سبيل استمراره السياسي والفيزيائي ، ضد شعب غير مقتنع بهذا الحكم . تلك هي نقطة الانطلاق اذن ، وسوف نرى كيف يبرهن او لا يبرهن جان زيجلر على افتراضاته هذه في دراسته بعد انهاء مقدمته . اما مجال هذه الدراسة فهو واضح : علم الاجتماع السياسي . وزيجلر يرفض قبول الافتراضين التاليين : الفهم البسيكولوجي لظاهرة الثورة والشرح التحديدي . مثل على ذلك : الاطروحة التي تعزو الى « خيانة القيادة » كل مشاكل افريقيا الراهنة . فهذه الاطروحة تتناسى العناصر الموضوعية التي تشترط هذه المشاكل . ويجب رفض اطروحة اخرى ـ يتبناها كتاب كشيلر ، مونرو وبورنهام ـ تنكر المعنى السياسي للاختلافات المادية التي تؤدي الى تجابه البشر . فحينما نفصل الانسان عن وضعيته المادية فاننا نفصله عن كل البشر ، فيفقد كل شعور بالتضامن ، ونحن نعرف ان الحماس البشري هو المحرك الفعلي للحياة . ان لم تكن الظروف المادية هي التي تفصل المستعمِر عن المستعمَر السيد عن العبد ، فما هي الظروف الفاصلة ؟ يجيب الكتاب المذكورون : هناك الطليعة وهناك الجمهور . وبنظرهم أن الله قد اراد ذلك . وهكذا يزعم مونرو ان الثورة ما هي الا سراب . (في : علم اجتماع الشيوعية ، باريس ١٩٤٩ وخاصة « ما هي الثورة » ص ٤٦١ ـ ٥٠٥) . وهكذا يزعم ان الثورة الافريقية ليست سوى استبدال الطليعة البيضاء بالطليعة السوداء او السمراء اما السواد الاعظم من الشعب فيبقى كما كان : تجتاحه الامراض ، يعاني الاستغلال ويحيا بلا امل . هذا رأي مونرو طبعا . اما نظرية الطلائع فهي لا تصمد امام التحليل الثاقب . وهذا ما سنراه بعد قليل .

ويعتقد زيجلر أن الثورة الافريقية لم تحقق اهدافها . لماذا ؟ هذا ما سيحاول زيجلر ان يعلله في كتابه . لذا سيعمد الى منهج علم الاجتماع السياسي . فالسياسة هي العمل الذي يقوم به بعض الاشخاص ضد اخرين . الا ان هذا العمل يخضع لمراقبة احكام وتقييمات ناتجة عنه . ويلاحظ زيجلر ان ثمة فاصلا بين القيادة والجمهور في غانا والكونغو ومصر . فما هو سبب هذا الفاصل وكيف عمل للقضاء عليه في مصر مثلا ؟ هذا ما سنناقشه فيما بعد .

اما النقطة الثانية المهمة نظريا فهي تتلخص كما يلي : ما هو الاسترقاق بمعناه الماركسي ؟ اي ما هي حالة صراع الطبقات في افريقيا؟ ان النظرية الماركسية في الاسترقاق الاجتماعي تتلخص في الفكرة التالية : يعاني الانسان ازمة انفصال داخلية تؤدي الى تعارض انسان الطبقة مع انسان الحاجة . أن هاتين اللحظتين تمثلان صورتين متعارضتين من صور الوعي : صورة تعارض الكائن من اجل اته مع صورة الكائن من اجل غيره : فالاول هو السيد والاخر هو العبد .

ان تقسيم البشر الى طبقات اجتماعية لا يمثل بنظر ماركس الاستعباد الوحيد الذي يجب فضحه وازاحة قناعه . ان علينا ان نبحث عن اسباب التباين الطبقي كي نقضي عليها . ذاك ان الاستعباد يتضمن عنصرا اخر : الوهم الذي يمنع الناس من ان يتبينوا حقيقة وجودهم الطبقي . فمن اين يأتي هذا الوهم ؟ من المجتمع المدني . والمجتمع المدني يعني بلغة ماركس مجتمع كل الناس وكل الطبقات . اي من المجتمع الكلي الشامل . فهذا المجتمع يوهمنا بتصالح الطبقات المتصارعة جوهريا .

ولنعد الان الى موضوعنا عن افريقيا : بين ٣٢ دولة افريقية مستقلة لا يوجد دولة واحدة تضمن في دستورها مساواة المواطنين امام القانون وتؤكد حقوق الانسان . هذا رأي زيجلر طبعا ـ ودراسته قد ظهرت عام ١٩٦٤ ـ . الا ان معظم هذه الدول تضمن قضائيا للمواطن حماية عمودية وافقية ضد اي انتهاك لحق من حقوقه الاساسية في الحياة . وعلى ضوء هذا الرأي الا تبطل نظرية ماركس في الاسترقاق ؟ يجيب ماركس ـ من خلال كتبه طبعا واتباعه ـ بالنفي . فبنظره ان وظيفة الدولة في مصالحة الطبقات ما هي الا خداع وايهام باطل . لان الدولة محتكرة بواسطة طبقة محدودة . « فالسلفة السياسية هي بالمعنى الحقيقي للكلمة سلفة طبقة منظمة بغيه قهر طبقة اخرى » (من البيان الشيوعي) . اذن ثمة تعايش وهمي بين الطبقات المتعادية في مستوى الدولة . اذن لا الدولة ولا المجتمع المدني يصلان الى معالجة التناقضات الطبقية او الغاء استعباد الانسان اجتماعيا . فما هي اسباب الاستعباد الاجتماعية ؟ او ما هي نظرية ماركس في صراع الطبقات ؟ سأنقل لكم فصلا قد اوردته في القسم الاول من هذه الدراسة : « ان طريقة الانتاج في الحياة المادية تحدد بصورة عامة ، المخاصمة الاجتماعية والسياسية والفكرية في الحياة . ليس وعي الانسان هو الذي يحدد وجوده ، أن وجوده الاجتماعي هو الذي يحدد وعيه » هناك صعوبة حقيقية في فهم الطبقات . فلنأخذ كلمة Classe واعتذر للقارىء العربي لانني غير قادر في ظروف بحثي الحالية ان اقوم ببحث مقابل حول مفهوم (طبقة) وتطورها في تاريخنا العربي . فكلمة Classis لها اساسا معنى منطقي واجتماعي . فالتعبير اللاتيني Classe يستخدم في الواقع الاجتماعي و Classis تعني انقسام المجتمع . الا ان هذا التعبير له معنى عسكري ايضا . وفي المجتمع الروماني ينتظم الناس في خمس طبقات حسب ثرواتهم ومراكزهم العسكرية . وفي فرنسا تعني Classe صفا في المدرسة . ومنطقيا نعني كل مجموعة من الاغراض او الاشياء التي تتميز بخصائص مشتركة . وبالمعنى السوسيولوجي تشكل البروليتارية والبورجوازية ... طبقتين اجتماعيتين مختلفتين . اما النظرية الماركسية فهي تعرف الطبقة الاجتماعية مستندة الى الدور التي تلعبه هذه الطبقة في سير الانتاج . ويجب ان نلاحظ ان هذا التعريف ليس ممكنا وحده . تعريفات اخرى ممكنة . وليس هنا بحال بحث التعريفات الاخرى . ذاك ان زيجلر قد انطلق من الماركسية فلنبق اذن معه ومع ماركس . ان الطبقة البروليتارية مثلا غير موجودة فعلا ـ فما يعوزها هو التنظيم ووعي مصلحتها المشتركة ، فيجب ان ننطلق من فكرة الطبقة الى مشروع تحقيق الطبقة الجديدة

(*) راجع القسم الاول من هذا البحث في العدد الماضي من « الاداب » .

بواسطة جهاز ما ـ الحزب الشيوعي بنظر ماركس ـ . وهكذا نلاحظ ان فكرة « الطبقات » مرتبطة اساسا بفكرة صراع الطبقات وبمفهوم السلفة. ان « البيان » يذكر وجود اربع طبقات : اثنتان في صعود (البورجوازية والبروليتاريا) واثنتان في اندحار (البورجوازية الصغيرة وطبقة الاقطاعيين النبلاء) . ان مفهوم الطبقة بالمعنى الماركسي يمتاز بتعاطف العوامل البسيكولوجية مع العوامل السوسيولوجية (وليست الاجتماعية كما هي) . وقد رأى ماركس ان عدد الطبقات سوف يتضاءل شيئا فشيئا . يبقى طبقتان : البورجوازية والبروليتارية او الحزب الحاكم والحزب المتحرك داخل المجتمع .

ويلاحظ زيجلر ان افريقيا تحتاج الى بروليتاريا ثورية ، ذاك أن صراع الطبقات ، بنظر ماركس ، هو محرك التاريخ تحت ظل اي نظام وفي اي عصر . فالفلاحون يشكلون القسم الاكبر من سكان افريقيا الغربية : ٩٥٪ من سكان شاطىء العاج ، ٩٠ بالمئة في الكاميرون و ٨٥ بالمئة في نيجيريا . ويقسم الفلاحون الى ثلاث مجموعات : الفلاحين الاثرياء ، الطبقة الوسطى وصغار الفلاحين ، الفلاحين الفقراء . ان البروليتارية والبورجوازية ما تزالان طبقتين في طور الولادة والمجتمع المستعمر لم « ينضج » كما توخاه ماركس . وقامت الثورة ضد الاستعمار. فكيف يمكن تعريف الطبقة المتجهة نحو تسلم الحكم ؟ يعرفها لوكاتش كما يلي في كتابه « تاريخ ووعي الطبقة » : « ان اتجاه طبقة نحو السيطرة يعني انه من الممكن ، انطلاقا من مصالحها الطبقية ومن وعيها الطبقي ، ان تنظم المجتمع كله وفقا لهذه المصالح ... والسؤال الذي يقرر ، اخيرا ، في شأن كل صراع طبقي هو التالي : اي طبقة تملك ، حينما يجب ذلك، هذه المقدرة الطبقية وهذا الوعي الطبقي ؟ » فلو اخذنا حالة مصر قبل عام ١٩٥٢ فهل نستطيع أن نعرف اي طبقة جديدة تسير نحو استلام الحكم ـ دائما نفترض اننا ضمن النظرية الماركسية ـ ؟ كيف يمكن اختيار طبقة معينة ـ نظريا طبعا وقبل الثورة ـ بين عدة طبقات ؟ يجيب لوكاتش في نفس الكتاب : كل شيء يتوقف على مدى اجابة الطبقةبطريقة واعية او غير واعية او بوعي عادل صحيح او بوعي خاطىء على المهمات التي القاها « التاريخ » على عاتقها. ان مصير طبقة ما مرتبط بمقدرتها في كل قراراتها التطبيقية على حل المشاكل التي يطرحها عليها التطور التاريخي . فنلاحظ اذن ان الطبقة ـ التحتية الاقتصادية تلعب دورا فاصلا في نظر لوكاتش والماركسية . فالطبقة معرفة ماركسيا حسب وعيها . الا ان الوعي ما هو الا وليد علاقات الانتاج . فلوكاتش يعرف الطبقة بالنسبة الى نظام الملكية وتوزيع الدخل الموجودين في مجتمع ما. بقي سؤال اخر : ما هي علاقة الطبقة الاجتماعية بالسلطة السياسية ؟ حينما نتحدث عن مصر مثلا لا نستطيع ان نتقبل « علاقات الانتاج » كعامل رئيسي في قيام الطبقة . ان زيجلر يصوغ الافتراض التالي : ان « الضباط الاحرار » حينما تسلموا السلطة في مصر كانوا يشكلون طبقة حاكمة منفصلة انفصالا كليا عن الشعب ، وحكومة منعزلة . وهذه الطبقة تتعارض مع بروليتارية المدن والفلاحين والبورجوازية التجارية والموظفين ... ويصوغ افتراضا اخر : ان سياسة الاشتراكية العربية تستهدف الوصول الى اجر وحيد ، يحسب نظرا للحاجة وليس حسب الضرورة الاجتماعية للعمل المنجز ... ويخلص الى القول ان الطبقة الحاكمة تستغل او تقهر الطبقات الاخرى . طبعا نحن نريد ان نبقى في حقل علمي : لا حاجة بنا للانفعال . ذاك ان زيجلر يحق له ان يفترض. فالافتراض سؤال . والمقدمة غير الخاتمة . ومن حقنا ان نطالبه ببرهنة ذلك وهذا ما سنراه حينما ندرس مصر بين عام ١٩٥٢ و ١٩٦٢ . اذن لا داعي للعجلة ، يجب ان نتعود على ان نقاوم عصبيا ، حتى يتمكن عقلنا من الاجابة والبرهنة والنقاش وحتى لا نكون منهجيين في عدائنا او في تأييدنا . يجب أن نصير موقفيين حيث ان العلم وحده هو الحل الحقيقي لمشاكلنا . ولنتابع مع زيجلر في مقدمته قوله : ان الوحدة الديالكتيكية التي حدثت ابان انتشار الثورة في غانا وفي مصر والكونغو قد دمجت الجماهير والكوادر ، الشعوب والحكام ، اولئك الذين يحكمون واولئك الذين خضعوا في غمرة الحماس . وهكذا ليس للجماهير اي تأثير على الكوادر ، والكوادر لا تتلقى من تحت لا ارشادات ولا انتقادات. ثم انشقت الوحدة الديالكتيكية ، مما ادى الى سلبية الجماهير.ويوضح زيجلر ان هذا الفهم للطبقات ما هو الا افتراض او تساؤل حتى يسهل العمل والبحث . بعد ذلك يعالج الكونغو ـ ليوبولدفيل وغانا كما اوضحنا سابقا . واما نحن فسوف ننتقل مباشرة الى « مصر من ١٩٥٢ الى ١٩٦٢ » لنر مع زيجلر ما رآه ولم يره .

الثورة تعني الخروج على شكل مألوف مفروض ، تعني التمرد . والثورة لا تصير كذلك الا حينما تستهدف التغيير العميق ، تغيير بنى المجتمع الاقتصادية والثقافية ، والثورة هي قبل كل شيء ضرب لسلطة قائمة ، هي تمرد على شكل معين للتنظيم الاجتماعي ـ اذن على القضاء والحقوق المعروفة ـ وارساء فلسفة جديدة وتشريع جديد . لماذا قامت ثورة ٢٣ يوليو في مصر ؟ هل كان روادها على وعي عميق لمشاكل مصر ؟ وهل كان لديهم خطة مدروسة تضمن لهم نجاح الثورة ؟ وهل يمكن لثورة ان تنتصر وان تستمر كما هي الحال في مصر ، ان لم تكن متصلة جوهريا وتاريخيا باعماق الحياة الشعبية ومعبرة ـ او تحاول ان تعبر ـ عن المشاكل الرئيسية لهذا الشعب ؟ ثم كيف يمكن لقوة عسكرية « الضباط الاحرار » مثلا ان تقوم بحركة مهمة كهذه ، ان لم تكن نابعة من الشعب، ثم لا بد ان نأخذ بعين الاعتبار الطبقات التي ينحدر منها هؤلاء الضباط؟ واخيرا اليست ثورة ٢٣ يوليو هي ـ كما ظهر ذلك بوضوح خاصة عام ١٩٥٦ ـ ثورة ضد التخلف وارساء لقيم انسانية جديدة لعل الاشتراكية العربية من اهمها ؟ تلك هي اسئلتنا الشخصية التي نطرحها من جانبنا وسنرى كيف يعالج جان زيجلر ظاهرة الثورة العربية في مصر وما هي نتائجها .

***

يبدأ زيجلر الفصل الاخير من دراسته عن مصر ، بمقدمة نظرية تتناول بعض المفاهيم والمدارك الفلسفية والسياسية والاجتماعية والسوسيولوجية . فالفيلسوف الفرنسي آلان (Alain) يميز بين نوعين من السياسة . النوع الاول هو سياسة العقل التي تشمل التاريخ وتربط كل المشاكل ببعضها وتتجه نحو مستقبل محفور في ارض الحاضر، معتبرة كل الماضي المعاش كمرحلة ما قبل التاريخ . فسياسة العقلتدعي اذن معرفة القوانين ، داخل الطبيعة وداخل حياة البشر ، التي تؤثر على مصائرهم ونسير مقاديرهم وتفرض على التاريخ الطريق التي يتبعها فعلا. بلغة اخرى : ان سياسة العقل تريد ان تصبح قادرة على تغيير التاريخ واعادة خلق العالم على صورتها . والنوع الاخر من السياسة هو سياسة الادراك التي يفضلها آلان وميرلو بونتي . فهي تهتم بالانسان كما هو . اما سارتر فقد رأى في رده على لفور وخاصة حول دحض نظرية البروليتارية حسب لفور (الازمنة الحديثة ، ١٩٥٧ ، عدد ٨٩ ، ص : ١٥٧١ ـ ١٦٢٩) « ان سياسة الادراك لا تدرك معنى الموقف ، فهي لا تقوم الا بتجربة مفاتيح بتردد » .

وثورة ٢٣ يوليو تثير مشكلة صعبة : ما هو معنى هذا الحدث التاريخي ؟ ما هو سفره ؟ وما هي نهايته ، غايته ... ؟ ويرى زيجلر ان نظريات الماركسيين المصرين هي اهم ما كتب حول الثورة . والمعلوم ان الماركسيين المصريين قد رفضوا ان يسموا حدث ٢٣ يوليو «ثورة». فبنظرهم ٢٣ يوليو هو مجرد انقلاب عسكري ـ وهذا رأي فئات عربية كثيرة في ذلك الوقت « حزب البعث » مثلا ، الذي غير رأيه بعد ١٩٥٤ وللايضاح يمكن مراجعة كتابات ميشيل عفلق : « معركة المصير الواحد» و « في سبيل البعث » . فما هو رأي الماركسيين بالثالث والعشرين من يوليو ؟ يعتقد مكسيم روبنسون ان جماعة اوليفارشية قد تولت الحكم واقامت مجتمعا مستقلا ، وسيرت اقتصاده بتطبيق بعض الخطوات الاشتراكية خاصة فيما يتعلق بقوى الانتاج ... ومصر الناصرية تدعي ارادة تأمين كل حاجات الشعب وقيادته نحو مستقبل زاهر في مجتمع مستقر واخلاقي كنموذج وقائد لكل الشعوب العربية . ويزعم روبنسون ان هذه الجماعة ـ أي رجال الثورة ـ تدعي بتأمين التقدم المستمر

والحرية المتزايدة ابدا ... فنرى ان هذه الافكار التي لا تستند الى اي مصدر صحيح من ناحية والتي يجب ان ينطلق كاتبها لو كان اكثر موضوعية من موقف الناصرية بدلا من الانطلاق في فهمها من مواقف مناهضيها . على كل ، نحن نعرف ، ان ما من ايديولوجية في العالم مهما كانت تقترح يوتوبياً كهذه . فكيف يمكن للعقل البشري القول بالتقدم المستمر والحرية المتزايدة ابدا ؟ ماذا تكون نتيجة هذا السير ؟ ثم ان روبنسون يطلق افكاراً تصلح كأخبار يومية ، فهي لا تعبر تاريخيا عن مرحلة واضحة . ويخلص روبنسون الى القول أن العقيدة الناصرية هي احسن مثال على النضال ضد الاجنبي لصيانة الشخصية القومية. وقد ظهرت دراسة روبنسون في الازمنة الحديثة عدد ٢٠٣ ص ١٨٨٢ .

اما الكاتب الاخر الذي اختاره زيجلر كممثل للماركسيين المصريين — ونحن لا ندري اذا كان يمثل نظرتهم الفعلية — فهو حسن رياض — وقد ظهر له كتاب بعنوان : مصر الناصرية ، لا يتعرض له زيجلر وانما يكتفي بالرجوع الى بعض مقالات كان قد نشرها رياض في «Partisans» عدد ٨ ص ٥٢ — . يزعم حسن رياض أن ثورة ٢٣ يوليو هي ثورة البورجوازية المصرية ضد الجماهير الكادحة وضد البروليتارية . طبعا هذا افتراء كما هو واضح لاقل المطلعين ولو بواسطة الضحك على تطور السياسة العربية والمنهج الاشتراكي في مصر . وحسن رياض لا يوضح ما هي خصائص الثورة البورجوازية هذه . والواضح ان حسن رياض ينطلق بجمود من النظرية الماركسية وليدة القرن التاسع عشر ، والتي تخص مجتمعا صناعيا مختلفاً عن مجتمعنا العربي قبل وبعد ٢٣ يوليو ، ليطبقها على ما حدث في مصر وما يحدث ، دون ان يأخذ بعين الاعتبار خصائص الحياة العربية في مصر ، وان مصر ليست كوبا او سواها ، بلدا صغيراً ، فمصر هي جزء من العالم العربي ، وقد برزت عناصر التضامن العربي ابان ازمة السويس . اذن طريق مصر نحو الاشتراكية لا يمكن ان تكون نظرية محضة ، فمن حق العرب في مصر ان يعرفوا طبعا وجهة سيرهم التاريخي ، ومن حقهم ايضا ان يبتكروا الطريق اذا كانوا قادرين على ذلك — ونعتقد انهم قادرون — . ورياض لا يقف عند هذا الحد : فهو يعتقد ان الطريق البيروقراطية ادت الى راسمالية الدولة وان رجال الثورة (البورجوازية) قد كونوا طبقة مغلقة بورجوازية وبيروقراطية . ويدعي أن ثمة ١٢ مليون شخص لا يعملون في المدن والارياف ... نحن نورد هنا ادعاءات رياض ونترك للقارىء العربي ان يحكم . فاذا كان عدد سكان مصر بعد الثورة ٢٤ مليونا واذا كان عدد كبير من السكان اطفالا ونساء و ١٢ مليون عامل عاطلين عن العمل ، فمن يعمل ؟ هذا يعني ان لا احد يعمل في مصر . طبعا نحن لا نقول ان من واجب حسن رياض أن يدافع عن الثورة العربية في مصر ، لكن عليه ان يحترم بعض قوانين العقل : المنطق واحتمال الحادث . ثم ان زيجلر يتناول اراء بعض الفرنسيين الذين كانوا في مصر مثل جان وسيمون لاكوتير . وهذه الاراء تعبر عن فهم ايديولوجي سطحي يعوزه عمق الباحث ورزانة العالم . ثم ينتقل زيجلر الى اراء اخرى مثل اراء جاك اوتروي الذي يعترف بالتغير الذي احدثه الضباط الاحرار ويشك مع ذلك بحادث ٢٣ يوليو فيتحدث عنه بتحفظ : « ثورة مصرية » بين هلالين دائما .

ويتناول زيجلر بعض اراء مقتطفة من « فلسفة الثورة » للرئيس عبد الناصر ، ومن مقابلات لاكوتير مع الرئيس عام ١٩٥٣ . فيميز زيجلر بين فلسفة — التكتيك وفلسفة البحث . المشكلة الرئيسية التي اعترضت سبيل المفكرين الغربيين هي المشكلة التالية : ما هو سفر الثورة، حلولها وما هي نهاية التجربة الناصرية ؟ ما هي بنية الطبقة الجديدة في مصر ؟ نلاحظ اولا ان ثورة مصر كانت منظمة ، ويحتل مركز التجربة الثورية رجل نعرفه جميعاً . ان عبد الناصر هو رجل العمل الثوري . فمن هو رجل العمل بنظر بعض العلماء في الاجتماع والفلسفة ؟ يورد زيجلر الرأي التالي للمفكر اليميني المتطرف : ريمون آرون ، صاحب عدة كتب واستاذ في السوربون . « ان رجل العمل هو الرجل الذي يختار في ظروف فريدة من نوعها ، اعتمادا على قيمه فعلا جديدا ويدخله في سلسلة محددة ... » ويتساءل زيجلر ما هي القيم التي انطلق منها عبد الناصر ؟ فيعود زيجلر الى فلسفة الثورة الذي يمثل بنظره رؤية متناسقة لمصر القادمة ، مصر المستقبل . وبعد عشر سنوات من الانجازات العظيمة ظهر « ميثاق القوى الشعبية » الذي يخص نظرة النظام الناصري الى البناء الجديد الذي يدعى « الاشتراكية العربية » يجب ان لا يغيب عن بال القارىء انني اعرض اراء زيجلر وانتقدها بعض الاحيان فاذا صادفته بعض الصفات مثل « عبد الناصر رجل ثوري » او «الانجازات العظيمة» فهذه هي لغة زيجلر التي احاول نقلها باخلاص . ويلاحظ زيجلر اننا لو تقبلنا كلمات ناصر وكتاباته كما لو كانت معبرة تعبيرا كليا عن افكاره العميقة فاننا نرتكب خطأ بشعا . فناصر قد تبنى فلسفة تكتيكية. ولينين قد استخدم قبله الفلسفة كوسيلة تكتيكية . ومنذ ذلك الحين ميز لينين بين فلسفة التكتيك وفلسفة البحث . وان دراسة « فلسفة الثورة » تظهر لنا ان عبد الناصر قد استخدم منهج لينين في فلسفة التكتيك . وقد اجاب الرئيس على اسئلة لاكوتير فقال : « ... اما فيما يتعلق بالعقيدة ، فنحن لم نتخذ موقفا اخيرا . اننا لا نزال في مرحلة تكوين . فنحن لم نختر بعد، اقول حقا ، لا فيما يتعلق بالاقتصاد ولا بالسياسة، ولا بين الليبرالية وبين النظام الموجه . لن نقرر امر هذا الاختيار الا اعتمادا على مشاكلنا وحاجاتنا » فنلاحظ ان رأي الرئيس واضح للغاية منذ البدء وهو علمي موضوعي يتوافق مع كل النظريات الجديدة حول النضال ضد التخلف — اوستروي مثلا — . وهذا رأينا الشخصي . لكن ما هي ايديولوجية الحركة الثورية هذه ؟ يتساءل زيجلر . ان عبد الناصر يميز كلينين بين فلسفة التكتيك وفلسفة البحث . عبد الناصر ممن يفهمون التاريخ بوعي عميق ، فهو يحاول ان يكتشف بعض العلاقات مع التاريخ المعاش ، وان يستنبط بشمول معنى اللحظة الحاضرة. ويحاول مقارنا بين الماضي والحاضر ان يخلص الى نظرة مستقبلية . ويحاول ان يدمج مغامرته الشخصية في مجرى التاريخ القومي . فناصر يقدم اولا شرحا بسيكولوجيا .. يورد زيجلر قسما كبيرا من « فلسفة الثورة » نختار منها بعض المقاطع ونعتذر لترجمتها عن الفرنسية ، فليس لدينا النص بالعربية هنا . يقول الرئيس « ... فلو زعمت حل كل مشاكل بلدنا ، لكنت حالما ، ولا احب ان اتعلق بالاحلام ... ونحن لا نملك الطاقة ولا الخبرة حتى نفعل ذلك . ان عملنا ، كما قلت ، يتلخص في تحديد طريقنا ، وفي قيادة المترددين في بداية الدرب ، وفي اللحاق باولئك الذين يسعون وراء الاوهام واقناعهم بالاخطاء التي يرتكبون ... ولقد قلت سابقا ان نجاح الثورة متوقف على فهم الاحداث الواقعية التي علينا مجابهتها ... » هذا هو الرجل الواقعي والعالم في آن . ويخلص زيجلر الى سؤال جديد : ثورة من فوق ؟ نعم ان عبد الناصر يحاول تحقيق الثورة من فوق . ومفهوم الثورة من فوق قد دخل في فترة متأخرة في الفكرة الماركسية — اللينينية . ان الثورة توحد المجتمع وتقضي على صراع الطبقات داخل المجتمع . و « الفوق » هو الدولة الثورية او بالاحرى « الفريق الحاكم الذي يجسد الارادة الشعبية والتي تحكم ، حينما تدعو الحاجة ، ضد رأي الجماهير العابر وغير المطلع . »

تلك هي المشاكل النظرية التي تعترض فلسفيا كل نظام ثوري يرى نفسه مطالبا بتبرير وجوده امام الخارج . فلنر الان ما هي مصر اقتصاديا، شعبيا ، ثقافيا ؟ وماذا فعلت الثورة ؟ يبدأ زيجلر بالمكان — او الجغرافيا — فيورد ان مساحة مصر هي ٩٩٤٦٠٠ كلم٢ وان عدد سكانها يتجاوز ٢٦ مليونا فتكون الكثافة هي ٢٦ مواطن في الكيلومتر المربع . وهذا هو اول خطأ يجب ان نتخلص منه . هذه الارقام صحيحة لكن تأويلها خاطىء. فيجب الا ننسى ان القسم الاعظم من الاراضي المصرية غير صالح للاستثمار وهو غير صالح للسكن او غير مسكون وان الكثافة هي عشر مرات اكبر اي تزيد عن ٢٥٠ مواطنا في الكلم المربع . مما يطرح مشكلة الكثافة بطريقة اوضح ، ويجعلنا ندرك مدى الصعوبات المادية والطبيعية التي ستعترض سبيل الثورة . اما من ناحية البنية — التحتية الاقتصادية ، فمصر غنية بمحتويات الارض ، مع ذلك فمصر بلد زراعي قبل كل شيء : تسعون بالمئة من الصادرات حاصلة من القطاع الزراعي، وزراعة القطن وحدها تشكل نصف الدخل القومي في الزراعة . اما

القطاع الصناعي فيشمل ... ٧٠٠ عامل . ولا تزال مصر غير مستقلة تماما عن الاسواق الخارجية بسبب زراعتها الوحيدة الصنف وبسبب غياب التركيز حول منطقة صناعية واحدة. فمصر تصدر القطن والفوسفات والمانغانيز والرز وخيوط القطن والبصل وتستورد : السيارات والتراكتورات والحديد والبترول الخام والاسمدة والقهوة والشاي والتبغ والكرتون والورق ... فما هي الوضعية الاجتماعية ؟ لقد كان متوسط الدخل الزراعي بين ٥٤ ـ ١٩٥٥ لا يتجاوز ٤٢ جنيها مصريا في سنة . ثم حدد القانون الجد الادنى للاجر الذي يتقاضاه العامل في الزراعة بـ ١٨ قرشا مصريا في اليوم . وقد كان عدد الاطفال الذين يذهبون الى المدرسة لا يتجاوز ٤٠ بالمئة فصار عام ١٩٦١ حوالي ٨٢ بالمئة ، اي تضاعف عددهم خلال تسع سنوات . اما عدد الطلاب الجامعيين فقد كان ٧٤٧ ٣٥ عام ١٩٥٢ وحتى ١٩٥٣ فصار ١٤١ ٨٣ طالبا عام ١٩٥٩ . وفي نفس المرحلة الزمنية ارتفعت الميزانية المرصودة للتعليم العالي من ٣٠٦ مليون جنيه الى ٨٠٧٥ مليون جنيه . الا ان هذه المدارس والجامعات لا تشمل الا المدن بصورة خاصة . ولا شك ان الثورة لاقت ولا تزال تلاقي صعوبات كثيرة في تمويل الحياة في الريف ، نظرا للاهمال الذي عرفه الريف في العهد البائد .

فما هو تاريخ هذه الطبقة الحاكمة الجديدة ؟ ان ميل طبقة ما الى السيطرة يعني انها تستطيع انطلاقا من مصالحها الطبقية ومن وعيها الطبقي ، ان تنظم المجتمع كله وفقا لهذه المصالح . فاي طبقة تملك ، حينما يجب ذلك ، هذه الطاقة وهذا الوعي الطبقي ؟ ـ عن لوكاتش او لوكاكس : من التاريخ والوعي الطبقي ـ . ان مصير اي طبقة يتوقف على طاقتها في كل قراراتها التطبيقية وعلى رؤيتها بوضوح وحلها للمشاكل التي يفرضها عليها التطور التاريخي ـ لوكاتش ـ . ولوكاتش لا يتقبل « الشيء بحد ذاته » كما يفهمه كانط مثلا . فبنظر لوكاتش ان الشيء ناتج عن العبودية . ان كل طبقة تبتكر تصنيفاتها الخاصة بها .. ان تصورات ذهنية ـ او افكارا ـ مثل « طبيعة » و « موضوعية » ... هي تصنيفات . والطبقة لا تفهم الواقع الا من خلال هذه التصنيفات . وحينما يتكلم الضباط الاحرار عن « دور مصر » وعن « مصير الوطن » او « تطور » اقتصادهم ، فانما يعبرون عن تصنيفات خاصة بهم كطبقة. ونلاحظ ان زيجلر يقصد بذلك ان هذه التصنيفات لا تعبر عن اي واقع موضوعي . بقي عليه ان يبرهن ذلك لا ان يتوقف عند حدود الافتراضات ـ اي الاسئلة ـ . فما هو تاريخ هذه الطبقة الجديدة . تعرفون كيف تكونت فكرة الضباط الاحرار وان ثورة ٢٣ يوليو لا تنفصل عن معركة النضال العربي الواحدة . وزيجلر يأبى ان يدرس مصر الا منفصلة عن كل شيء : عن العالم العربي وعن العالم بصورة عامة . وهذا خطأ منهجي يضاف الى خطأ نظري .

لقد وجد الضباط الاحرار انفسهم امام امرين ـ في البدء ـ اما ان يعتنقوا فكرة « الاخوان » واما ان يتحدوهم بفكرة اكثر صلادة ومتانة من فكرتهم . فالضباط الاحرار هم علمانيون بعكس الاخوان ، وهم بعكسهم ايضا لا يؤمنون بنظرية الملكية الخاصة كقرض يمنحه الله للانسان . بنظرهم كل شيء هو ملك للشعب . اما المحرك الرئيسي لتفكيرهم فهو القومية والنضال ضد الانجليز . وقد التقى جمال عبد الناصر في العلمين بوجهي خليل ، ثوري من المدرسة الماركسية ، الذي اثر عليه فكريا حتى استشهاده في فلسطين . وفي عام ١٩٤٢ تغير الجو السياسي في مصر بسبب اللعبة التي قام بها البريطانيون . ففي صبيحة ٤ شباط طوق القصر الملكي ، واعلن الحاكم البريطاني الاعلى : اما ان يكلف الملك بتشكيل حكومة مؤيدة لبريطانيا واما ان يتنازل عن عرشه . وافق الملك على تشكيل الحكومة وكذلك الوفد . فصار النحاس رئيس الوزارة . وقد ادى ذلك الى تغيير حساسية الشعب العربي في مصر : فلم يعد الشعب مؤمنا بان النحاس هو الناطق باسم القومية العربية ، اما الجيش المصري فقد سيطر عليه جو من السخط والغضب. بعد ذلك اخذ الضباط الاحرار يجتمعون بانتظام لمعالجة المشاكل الاقتصادية والسياسية وبصورة خاصة من اجل صياغة ستراتيجية تسمح لهم بتسلم السلطة . اما حرب فلسطين فتشكل المرحلة الثالثة في مصير ايديولوجيتهم . فقبل ١٥ ايار كان الضباط الاحرار يحاولون ان ينضموا متطوعين الى صفوف اخوانهم الفلسطينيين . وقد اكتشفوا كما تعرفون ان النظام الملكي لا يهتم لا بحربهم هذه ولا باندحارهم في المعركة . وفي عام ١٩٤٩ شكل جمال عبد الناصر اللجنة التنفيذية للضباط الاحرار ـ وتضم عامر ، خالد محيي الدين ، كمال الدين حسين ، حسن ابراهيم وعبد الرؤوف ـ وظهر « صوت الضباط الاحرار » . اما افكارهم الرئيسية فهي : القومية العربية والنضال ضد المحتل ، اقامة دولة علمانية اشتراكية ، تجديد كل الكوادر العسكرية والمدنية وبناء دولة ذات اتجاه وحيد قادرة على تأمين استقلال مصر استقلالا حقيقيا وتطوير اقتصادها تطويرا كافيا .

وتنقسم الطبقة الحاكمة الى طليعة حكومية وطليعة غير حكومية . اما الضباط الاحرار فيلعبون دور الطليعة الحكومية . اما الجيش فيكون الطليعة غير الحاكمة . وقد نشأ الجيش المصري بمفهومه الحديث في ظل محمد علي . وقد امتاز هذا الجيش انذاك بنقطتين : كان الجنود ينتمون الى الفلاحين ، اما الكوادر فكانت مؤلفة من الاتراك والالبانيين.

وفي عام ١٩٥٢ في يوليو ـ تموز ـ عرفت مصر ازمة حكومية مشهورة سمحت للضباط بتسلم السلطة بطريقة غير مباشرة . نعرف ان نجيب قد مثل الثورة ـ وبنظرنا الوجه الاخر للثورة ـ فمحمد نجيب رجل غير مثقف ، قليل الانفتاح على الايديولوجيات السائرة ، وخاصة ايديولوجية الضباط . فهو مرتبط بالتراث متمسك به . وكان يميل الى ارساء نظام ليبرالي معتدل . فوضعية نجيب هذه متناقضة مع نظرية الثورة المستمرة التي صاغها الضباط . وقد جعل نجيب من العيد الاول للثورة عيد انتصاره الشخصي . وهو كغريب عن حركة الضباط،استند الى الاخوان ـ اعداء الضباط الاحرار المعروفين ـ الذين حركوا عدة الاف من الجمهور لتمجيده . وكان ذلك حلول عهد البورجوازية الدينية. واحس الضباط بالخطر . وقد هاجم الاخوان المسلمون جماعة من انصار التحرير ـ اي من الناصريين ـ . وتدخل البوليس فرد على اعقابه . وكان ناصر وزير الداخلية انذاك ، فمنع الاخوان واوقف قادتهم وقضى على معظم مستودعاتهم العسكرية ... فاعترض نجيب على ذلك مطالبا بحق الفيتو على قرارات مجلس قيادة الثورة والا فانه سيترك الحكم . فوضع نجيب تحت الحراسة الموقتة ثم اعلن مجلس الثورة بعد ٢٦ شباط بثلاثة ايام ـ اي في ٢٨ منه ـ عودة نجيب الى الحكم . فماذا حدث بين هذين التاريخين ؟ في ليلة ٢٧ شباط ايد الضباط نجيب ضد ناصر . فوصل ناصر الى مكان الاجتماع الا انه لم يتمكن من اقناعهم . وبينما كان يتحدث اليهم ، طوقت الثكنة . وظهر في الجيش تهديد بالانفصال . فتراجع ناصر : فليات نجيب اما انا فسوف استقيل ـ وقد اورد لاكوتير ذلك ـ . وفي ٢٥ مارس (اذار) لعب ناصر الورقة الاخيرة: لقد قرر حل مجلس قيادة الثورة واعلن تراجعه عن الثورة . اما اعضاء الحرس القومي فقد حصروا الجماهير . فاعلن اضراب عام . وتدافعت عدة الاف من المتظاهرين نحو مقر الرئاسة مطالبين بمتابعة الثورة ومعاقبة الخونة . واخيرا ظهر ناصر ، فصفق له بحماس معروف . عندئذ انحنى نجيب وصار ناصر الرئيس الحقيقي . فما هي انجازات الثورة ؟ دشنت حكومة الثورة عهدها بمرحلة بناء بمعاونة الرساميل الاجنبية ودشنت الاقتصاد الاشتراكي بابعاد كبار الملاكين . من ١٩٥٢ ـ ١٩٥٦ مرحلة ليبرالية متطرفة . ذاك ان الاقتصاد المصري كان ذا بنية شبه استعمارية. ويمثل عام ١٩٥٦ فاصلا حقيقيا في تاريخ الثورة : بدء تأميم الرأسمال الاجنبي وبدء الاصلاح الزراعي الفعلي . ولو اخذنا ثورة اوكتوبر لوجدنا انها نهجت نفس النهج تقريبا . اما مصر فلها ازمة خاصة هي ازمة الماء. وبعد عام ١٩٥٦ توصل الضباط الاحرار الى فهم اصيل في الاقتصاد : « الاشتراكية العربية » . فماذا حدث بين ١٩٥٢ ـ ١٩٥٦ ؟ لقد بقيت السلطة التنفيذية بين ايدي المدنيين . ارتفع الانتاج الزراعي وارتفع الانتاج الصناعي ايضا ونفس النتيجة الايجابية في حقل التعليم . وقد تفهمت حكومة الثورة تفهما صحيحا وضعية الرأسمال الوطني فاسست

« المجلس الدائم للانتاج » « المجلس الدائم للخدمات الاجتماعية » « المصلحة العامة للبترول » « هيئة السد العالي في اسوان » ... وبعد ١٩٥٦ وحتى ١٩٦٢ بدأت سياسة جديدة هي سياسة الاشتراكية العربية : نتج عنها تحويل البنية التحتية اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا للبلد باكمله . فما هي اسباب نشوء الاشتراكية العربية ؟ ان هذه الاسباب تنحصر في سلسلة احداث خارجية منها : تحالف البورجوازية مع اعداء الثورة . ضرورة التطوير الاقتصادي السريع . ضرورة توسيع القطاع العام . كل هذا ـ الى جانب الخطر الصهيوني ـ الاستعماري ـ دعا رجال الثورة الى بناء مؤسسة ثورية كالاشتراكية تحمي مكاسب الثورة وتصونها من الخارج وتقويها في الداخل . وفي عام ١٩٥٥ اعطى مجلس الثورة الاولوية للتسلح العسكري . جاء بعد ذلك تأميم قناة السويس : فظهر للضباط الاحرار ان الاعداء في الخارج لهم حلفاء في الداخل . فكان لا بد من ضرب اعوان الاستعمار.ومصر تؤمن بوحدة النضال العالمي ضد الاستعمار ـ ذاك ان انسانية القومية العربية لا تحد جغرافيا ـ فحينما استشهد لومومبا قطعت مصر علاقاتها مع بلجيكا...

وتبنت حكومة الثورة سياسة جديدة في حل مشاكل القطاع الزراعي : وذلك بتنمية القطاع الصناعي بانفتاحه على القطاع الزراعي الذي يقدم له المواد اللازمة كالقطن وسواه . واخذت حكومة الثورة على عاتقها تنظيم التسليف الزراعي . الا ان التسليف كان محصورا فقط بكبار الملاكين . وبعد عام ١٩٥٧ شمل التسليف كل القرى وصار القرض في متناول كل فلاح ، وبدون فائدة وفقا لقوانين ١٩٦١ . الا ان الاصلاح الزراعي لا يستطيع وحده تغيير البنية الزراعية للبلد ، فمصر تفتقر الى اراض صالحة للاستثمار . النضال ضد الصحراء يبدأ في « اقليم التحرير » . نحو السد العالي .

وكان على حكومة الثورة ان تقاوم : الاستعمار واعوانه ، الرجعية المصرية والعربية ، طبيعة الارض ، التخلف الذي تركه العهد البائد ، وان تنفتح على العالم العربي والخارجي . كان عليها ان تناضل ضد كل ما يعترض سبيلها الثوري . في الداخل حاربت : الوفد ، الاخوان المسلمين ، البورجوازيين الليبراليين . ويدعي زيجلر انها حاربت العمال. كيف ؟ متى ؟ اين ولماذا ؟ صحيح لقد حاربت حكومة الثورة الطبقة البورجوازية التي يمثلها حزب الوفد ، لان حكومته لم تستطع صيانة السيادة القومية عام ١٩٤٢ ولان النحاس كان نصير الانجليز . والوفد حزب لا يناضل وهو غير ثوري . ولعل هذه غلطته الرئيسية : ففي مرحلة الاستعمار ليس للمواطنين سوى واجب رئيسي : النضال ضد المحتل . اما كيف قاومت الثورة الحركة العمالية في مصر فيجيب زيجلر : ان « الحركة العمالية » تشمل الهيئة النقابية الحزب الشيوعي المصري ، الحزب الشيوعي المصري الموحد وحزب الطليعة العمالي . وان هذه الحركة تمثل اليسار المصري . واذا كان عبد الناصر قد عمل على اضعاف هذه القوى الضئيلة الشأن لان انتصار القومية العربية كان يعني نهايتهم المحتومة ، ولان حكومة الثورة تتجه نحو وحدة الصف بدلا من تمزيق وحدة البلد . اما انحطاط مصر في القرن العشرين فقد ادى الى بروز « الاخوان المسلمين » كقوة حقيقية . والاخوان لا يمثلون اي اتجاه حقيقي . وهم اعداء الاشتراكية العربية واعداء الثورة ومن الطبيعي ان يبعد اعداء الثورة وان يقضي عليهم . فتلك هي طبيعة النضال الثوري. ولا داعي لايراد الامثلة فكلنا نعرف ماذا حدث بعد ثورة اوكتوبر ١٩١٧ . ويستنتج زيجلر : ان شعبية عبد الناصر لم تتضاءل Il reste le Zaîm, le Raîs, le Chef وهو لا يزال الزعيم والرئيس والقائد . ويستنتج ايضا : حتى تحكم جماعة ما لا يكفي الحصول على تأييد الجماهير لهذه الجماعة ، يجب خلق علاقات ووسائل اتصال وحوار منظم بين الناس . يجب خلق منظمات جماهيرية . وقد حاول الضباط الاحرار خلق ذلك ثلاث مرات وفشلوا . ولقد فشلت ثلاث ثورات افريقية : الاولى في الكونغو والثانية في غانا والثالثة في مصر .

***

اما نحن فاننا نشكر المحاول الماركسي جان زيجلر على عمله هذا ، ونتمنى ان يقوم مفكرون آخرون عرب واجانب بدراسة مشاكلنا بوضوح اكثر وبتجرد وتواضع . ويحق لنا ان نبدي بعض الملاحظات التالية :

١ ـ لا يمكن دراسة بلد في حالة تطور وتغير من خلال كتب ومجلات وجرائد فقط . ان النظرية مفتاح ، ضوء على مفارق الطرقات . يجب ان نتمكن من اصلاح اخطائنا النظرية بواسطة التجارب والابحاث العلمية . وهذا ما لم يفعله زيجلر .

٢ ـ لقد نسي زيجلر نقطة هامة في تاريخ مصر والعرب الا وهي الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ التي تؤكد اهمية المنطلق الاشتراكي وان مصر ليست نقطة صخرية في بحر اسود .

٣ ـ كان يجب ان يتكلم ـ لوزار مصر ـ عن التطور الفكري وعن مراكز الابحاث العلمية الوحيدة من نوعها في الشرق الاوسط .

٤ ـ لقد حاول ان يطبق النظرية الماركسية وهو مؤمن بها كاملة ، ونحن لا نشاركه الرأي فالنظرية الماركسية احدى النظريات المهمة ـ وخاصة في منهجيتها ـ لكنها ليست الوحيدة . فنحن في اشتراكيتنا لا نريد ان نرحل نحو روما . وكل شعب له طريقه .

***

ثم انني اذ اتحدث عن مصر ، فانني اتحدث عنها كجزء من عالمنا العربي الكبير دونما تمييز او تحيز . وحينما اجد كتبا او مقالات تهمنا كعرب فانني لن اتوانى عن الحديث عنها وابراز اهميتها ونقدها ، كل ما نكتبه هو دعوة . واما ان يأتي كاتب كجان زيجلر فيدرس افريقيا الجديدة فلا احد يعارضه في ذلك ، الا اننا نعارضه حول نقطة رئيسية : ان ثورة مصر غير بورجوازية . الدليل هو انها حاربت البورجوازية ، وهي ليست ضد مصالح العمال ، والدليل هو نظام الاشتراكي . وان الثورة لم تفشل لان الوقت لم يحن بعد للحكم عليها ، ولان الانجازات الثورية تشهد على صحة العمل الثوري وعلى مدى نجاحه . ثم اننا مدعوون لكي نذكر دور مصر الطليعي في ثورة الجزائر واليمن والتثقيفي في مساعدة البلدان العربية ودورها العالمي ونضالها من اجل تحرير العالم الثالث : اننا كعرب ، وهذا واضح موضوعيا ، قد تجاوزنا فعلا حدودنا القومية دون ان ندوس قيمنا الذاتية كما اراد الاستعمار ان نفعل ، لنتصل بالانسانية .

فرنسا ـ جامعة ليون

خليل احمد خليل

اطلب منشورات

دار الاداب

في الاردن

من

المكتب التجاري

لصاحبه محمد موسى المحتسب

القدس ـ تلفون ٤٤٦٥

عمان ـ شارع الملك حسين ـ مقابل بنك انترا